

فكر، أليف عبر، فمتى وجدنا من ذلك بابا يحتمل أن يوشح
بالأشعار الظريفة البليغة، والأخبار الطريفة العجيبة، تكلّفنا
ذلك ورأيناه أجمع لما ينتفع به القارئ ولذلك استجزنا أن
نقول في باب النار ما قلنا» (٥-١٥٣) .

ولو لم يكن ما نزعناه أقرب إلى تفسير منهج الأدب
الجاحظي بالنقد الداخلي لما تسنى لنا الوقوف على ضروب
الإحالات ومواضع الزلات في إحكام صنعة المقول التصنيفي
الذي يتحوّل فيه الخطاب من ملفوظ الأدب إلى الكلام بالأدب
في الأدب، على أن تداخل النمطين في كتب الجاحظ هو الذي
يقرب بيننا وبين شبكة المنهج في التصنيف، وعلى هذا
المستند تتراءى الإحالة التي تزل إليها قدم صاحب الحيوان
حين يتوهم التفريغ عن كذّ العلل والاحتجاجات، بالبراهين
والاستدلالات، أو حين يزعم الترويح بالهزل بعد الجدّ فيستوي
- في الذي يأتي به - عناء الألق بكذّ السابق :

«وإن كنّا أمللناك بالجدّ، والاحتجاجات الصحيحة،
والمروجة، لتكثر الخواطر، وتشخذ العقول، فإننا سننشطك ببعض
البطالات وبذكر العلل الطريفة والاحتجاجات الغريبة» (٣-٥) .

«وسندكر من هذا الشكل عللا ونورد عليك من احتجاجات
الأغبياء حججا، فإن كنت ممن يستعمل الملالة وتعجل إليه
السامة كان هذا الباب تنشيطا لقلبك وجماما لقوتك (...)
وإن كنت صاحب علم وجدّ (...). لم يضررك مكانه من الكتاب»
(٣-٦) .

فهل إن تفسير ذلك يكمن في غزارة المادّة المتجمّعة وطفانها